@ 251 @ وعدا عليه حقا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذي يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) ^ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السابقة فقال : ^ (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن) ^ أي : كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين ، وأمهلناهم قبل ذلك الإهلاك ، بأن ^ (مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) ^ من الأموال والبنين والرفاهية . ^ (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) ^ تنبت لهم بذلك ما شاء ا ، من زروع وثمار ، يتمتعون بها ، ويتناولون منها ما يشتهون . فلم يشكروا ا على نعمه ، بل أقبلوا على الشهوات ، وألهتهم اللذات . فجاءتهم رسلهم بالبينات ، فلم يصدقوها ، بل ردوها وكذبوها ^ (فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) ^ أي : فأهلكهم ا بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم قرنا آخرين . فهذه سنة ا ودأبه ، في الأمم السابقين واللاحقين . فاعتبروا بمن قص ا عليكم نبأهم . ^ (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن ه ذآ إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) ^ هذا إخبار من ا لرسوله عن شدة عناد الكافرين ، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به ، ولا لجهل منهم بذلك ، وإنما ذلك ظلم وبغي ، لا حيلة لكم فيه . فقال : ^ (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم) ^ وتيقنوه ^ (لقال الذين كفروا) ^ ظلما وعدوانا ^ (إن هذا إلا سحر مبين) ^ . فأي بينة أعظم من هذه البينة ، وهذا قولهم الشنيع فيها ، حيث كابروا المحسوس ، الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه ؟ ^ (وقالوا) ^ أيضا تعنتا مبنيا على الجهل ، وعدم العلم بالمعقول . ^ (لولا أنزل عليه ملك) ^ أي : هلا أنزل مع محمد ملك ، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر ، وأن رسالة ا ، لا تكون إلا على أيدي الملائكة . قال ا في بيان رحمته ولطفه بعباده ، حيث أرسل إليهم بشرا منهم يكون الإيمان بما جاء به ، عن علم ، وبصيرة ، وغيب . ^ (ولو أنزلنا ملكا) ^ برسالتنا ، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكان إيمانا بالشهادة ، الذي لا ينفع شيئا وحده . وهذا إن آمنوا ، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة . فلو لم يؤمنوا ^ (لقضي الأمر) ^ بتعجيل الهلاك عليهم ، وعدم إنظارهم ، لأن هذه سنة ا ، فيمن طلب الآيات المقترحة ، فلم يؤمن بها . فإرسال الرسول البشري إليهم ، بالآيات البينات ، التي يعلم ا أنها أصلح للعباد ، وأرفق بهم ، مع إمهال ا للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع . فطلبهم لإنزال الملك ، شر لهم ، لو كانوا يعلمون . ومع ذلك ،

فالملك لو أنزل عليهم ، وأرسل ، لم يطيقوا التلقي عنه ، ولا احتملوا ذلك ، ولا أطاقته قواهم الفانية . ^ (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) ^ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك . ^ (وللبسنا عليهم ما يلبسون) ^ أي : ولكان الأمر ، مختلطا عليهم ، وملبوسا . وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم ، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس ، وعدم بيان الحق . فلما جاءهم الحق ، بطرقه الصحيحة ، وقواعده التي هي قواعده ، لم يكن ذلك هداية لهم ، إذا اهتدى بذلك غيرهم . والذنب ذنبهم ، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى ، وفتحوا أبواب الضلال . ^ (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون * قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ^ يقول تعالى مسليا لرسوله ، ومصبرا ومتهددا أعداءه ، ومتوعدا . ^ (ولقد استهزىء برسل من قبلك) ^ لما جاؤوا أممهم بالبينات ، كذبوهم واستهزأوا بهم ، وبما جاؤوا به . فأهلكهم ا بذلك الكفر والتكذيب ، ووفر لهم من العذاب أكمل نصيب . ^ (فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) ^ فاحذروا أيها المكذبون أن تستمروا على تكذيبكم ، فيصيبكم ما أصابهم . ^ (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ^ أي : فإن شككتم في ذلك ، أو ارتبتم ، فسيروا في الأرض ، ثم انظروا ، كيف كان عاقبة المكذبين ، فلن تجدوا إلا قوما مهلكين ، وأمما في المثلات تالفين . قد أوحشت منهم المنازل ، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل . أبادهم الملك الجبار ، وكان نبأهم عبرة لأولي الأبصار . وهذا السير المأمور به ، سير القلوب والأبدان ، الذي يتولد منه الاعتبار . وأما مجرد النظر من غير اعتبار ، فإن ذلك لا يفيد شيئا . ^ (قل لمن ما في السماوات والأرض قل كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ^ يقول تعالى لنبيه صلى ا عليه وسلم : ^ (قل) ^ لهؤلاء المشركين ، مقررا لهم وملزما بالتوحيد : ^ (لمن ما في السموات والأرض) ^ أي : من الخالق لذلك ، المالك له ، المتصرف فيه ؟ ^ (قل) ! 2 2 ! ( ) ^ وهم مقرون بذلك لا ينكرونه ، أفلا حين اعترفوا بانفراد ا ، بالملك والتدبير أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد ؟ وقوله : ^ (كتب على نفسه الرحمة) ^ أي : العالم العلوي والسفلي ، تحت ملكه وتدبيره ، وهو تعالى ، قد بسط عليهم رحمته وإحسانه ، وتغمدهم برحمته وامتنانه ، وكتب على نفسه كتابا (أن رحمته تغلب غضبه) و (أن العطاء أحب إليه من المنع) و (أن ا قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة ، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم ، ودعاهم إليها ، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم) . وقوله : ^ (ليجمعنكم إلى يوم القيامة . لا ريب فيه) ^ وهذا قسم منه ،